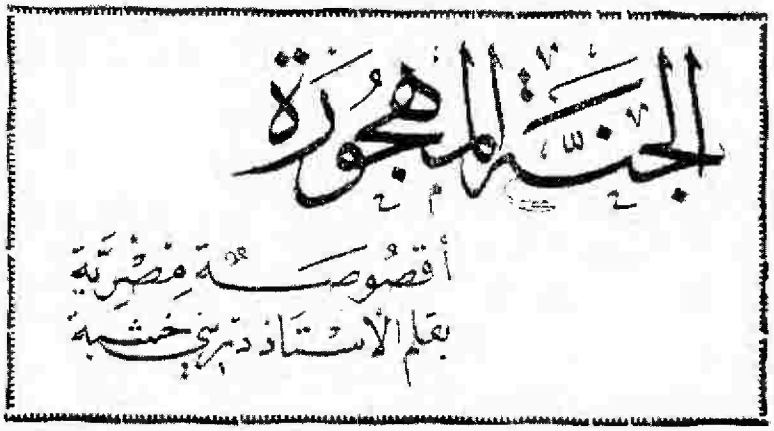

— منزلكم جميل جداً يا نعيم ! حقول فسيحة تطن بالنحل والفراش ، ونهر عظيم ناعم الأديم ينبع من الأزل ويتدفق فى الأبد ، وريف وديع هادئ يُسيم فيه الشاء والبقر ، وينعم فيه الفلاحون بالتوت والجميز ... و ...

— حسبك يا محمود ! إن بيتنا هذا كالجنة المهجورة التى تفيض بالزهر الفياح والنبات الأريج ، وهى مع هذا بكماء خرساء عمياء ، لأن زهرها يتفتح فلا يحس به أحد ، ونباتها يتأرج فلا ينتفع به مخلوق

— ماذا تعنى يا نعيم ؟ أعاشق أنت ؟

— أنا ؟... أنا عاشق ؟ وَيْك يا أخى ؟

— ولم لا يا صديقى ؟ أنت شاب في مقتبل صباك وشرخ شبابك ، فاذا لم تحب ، فلمن خُلق الحب ؟

— خلق الحب لمن خلقوا له !

— وأنت من أمتهم ! أليس كذلك ؟

— أنا ؟ لشد ما يخدعك مظهرى عن مخبرى يا محمود !

— لست أفهم !

— لأنك كمعظم الناس ، يخلبهم زخرف الحياة فلا يعرفون حقيقتها

— ماذا يا نعيم ؟

— لا شىء ! ألست قد بهرك هذا المنزل الجميل وذاك الموج المونق فخدعك ظاهرى عن باطنى !

— توشك أن تنقلنى من عالى الملموس إلى دنياك المترعة بالألغاز !

— ألغاز ؟ آه ! حقيقة إن الحياة مملئة بالألغاز ، بل المعميات ، وهى مع ذاك وعلى ما يبدو لى لا ألغاز فيها ولا معميات !

— وكيف يا أخى ؟ أكاد أحسبك تناقض نفسك !

— كلا يا محمود ! إن الحياة حقيقة تصدم النفس ، وشعر يُزَوِّقه القلب ؛ والحقيقة تصنع نفسها ، أما الشعر فهو تعلات وآمال ، وهمس الروح التى تنشد الأمانى ولا تقدر عليها ، فهى تكتفى بأطيافها السابحة فى عوالم الخيال ، ترنو إليها وتغازلها بالأحلام ، حتى إذا استيقظت صدمتها الحقيقة المرة فَذُعرت ، وتمنت أن تعود إلى أشعارها الحلوة ... ولكن هيهات !

— هيهات ماذا ؟

— هيهات أن تعود نفس صدمتها حقيقة الحياة إلى شعر الحياة !

— إنك تخيفنى يا نعيم بهذا الذى تقول !

— حقاً أنا أخيفك لأنك أحسست أن كلماتى تنقلك من دنيا الأحلام الباطلة التى تسبح فيها إلى هذه الأرض التى خلقت من طين الحقيقة !

— لقد كنت أرجو أن أكتشف فيك غراماً ... فاذا

— فاذا أنت تكتشف فى آلاماً !

— ومع ذاك فأنا لا أفهم مصدرها !

— إذا ... هلم أرك بيتنا يا محمود !

* * *

— هذه غرفة أبي !

— إنها غرفة صحية واسعة جميلة الأثاث !

— ألست ترى أنها كذلك !

— بل أكثر من ذلك ! ما أثمن هذه السجادة الفارسية ! وهذا السرير الوثير ما أبدعه !

— وتلك آية أخرى على أنك تعيش على هامش الحياة !

— وكيف يا صديقي ؟

— لأن الذي فتنك من غرفة أبوي هو أثاثها وسجادتها وسريرها !

— وأنت ؟ ألا تفتنك هذه الأشياء ؟

— وكيف تفتنني وهي أكفان سعادتنا يا محمود !

— ويحك ماذا تقول يا نعيم ؟

— إي وربي إنها أكفان تلك السعادة العزيزة الغالية ... أنظر يا صديقي إلى هذا السرير الذي تقول إنه وثير ... أليس يشبه النعش ؟

— أي نعيم ! أي صديقي ! !

— ماذا يا محمود !

— إنك تزعجني !

— لعل الذي أزعجك شيء آخر ! هذه الألفاظ ... أكفان ... نعش ...

— أجل ... وشيء آخر ...

— وما هو ! ؟

— لهجتك ونبرات صوتك . . إن روحك تبكي من بين شفتيك

— أسلوبك جميل يا محمود ! بدأت تفهمني !

— لنخرج من هنا يا نعيم !

— ولماذا ؟

— لأنني أرتجف !

— ومم ترتجف يا صديقي ! ؟

— منك !

— مني ؟

— هلم ! هلم نخرج من هنا

— إنك تهينني يا محمود !

— ما إلى إهانتك قصدت ، ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— ولكني رأيت شيئاً غريباً في عينيك !

— رأيت شيئاً غريباً في عيني ؟ إنها أحزاني يا محمود ، وكنت أرجو أن تواسيني ، فماذا أنت تريد أن تهرب مني ... تعال !

— ٢ —

— أهكذا تقضي هذه الحياة يا نعيم ؟

— وماذا عسانا أن نصنع يا أختاه ؟

— إلى متى نتجرعها كؤوساً من العلقم يا أخي؟

— وماذا جعلها علقما يا أمينة ؟ ألسنا في سعة وعز ؟ أليس لنا هذا المنزل النيف ومن حوله ذاك البستان الفينان ؟ ألسنا محبوبين في ذاك الريف البريء ؟ فلِمَ تكون حياتنا علقما إذن ؟

— نعيم !

— ماذا يا أعز الناس على نعيم !

— لقد آن أن أصرح لك !

— تصرحين لي بماذا ؟

— بالسر نفسه الذي يمزق صدرك ، وتحسب أنك أنت الذي تعرفه وحدك !

— السر الذى يمزق صدرى ؟ أى سر هذا ؟

— نعيم ! لماذا إذن أنت منقبض النفس سادر هكذا دائماً ؟

— بل خبرينى عن السر الذى تزعمين أنه يمزق صدرى ، ما هو ؟

— أراك تحاول أن أعترف أنا أولا ... كنت أحسبك أكثر شجاعة منى لأنك رجل وأنا امرأة

— عجباً ! أنتن يا بنات حواء تبدأن بنصب الشراك دائماً ! أى سر يا أختاه هذا الذى لا أجسر أن أعترف به لك قبل أن تعترفى لى به ؟

— وها أنت ذا تأبى إلا أن تبالغ فى الكتمان لأعترف أنا أولا ، ومع ذاك فقد أخذت تضطرب وتتنفس عرقاً !

— أنت بارعة فى اقتفاء الصيد يا أمينة ، على أننى أحلف لك أننى لا أعرف أى سر تريدين !

— إذن هذا الشاب محمود !

— ماله !

— لقد ... أحبنى !

— وهل هذا سر ؟ هاها ... إنى أكون فخوراً إذا تزوجتما ! آه يا خبيثة ! لشد ما أفزعتنى !

— أرأيت إذن ؟ ها قد انشرح صدرك حينما اطمأننت على السر الذى يمزق صدرك ، وتأكدت أننى لا أعرفه !

— ماذا يا أمينة ؟ أتريدين أن تلعبي بى يا أختاه ؟

— سأظل ألعب بك حتى تعترف أنت أولاً ... تكلم يا آدم ! إنك لن تغلب حواء قط !

— يا عجباً ! تريدين أن أهذى ؟ أى سر هذا الذى يفزعك فلا تستطيعى البوح به ؟ ماذا صنع بك محمود ؟

— وماذا تظنه صنع بى ؟

— إعتدى عليك ! أليس كذلك ؟

— هو ذاك ! هو ذاك يا نعيم !

— ويلك يا شقية ، يا ابنة الحية التى لا تلد إلا حية !

— مرحى مرحى ! لقد انتصرت ! ها قد بحت بكل شىء يا عزيزى !

— انتصرت ؟ وكيف ؟ وبم بحت أنا !

— ألست قد قلت إننى ابنة الحية التى لا تلد إلا حية ؟ وبم كنت تريد أن تبوح أكثر من هذا ؟

— أمينة ! أصدقينى يا أختاه ! أحقاً قد اعتدى عليك محمود ؟

— محمود يعتدى على ؟ والله لأرويت الأرض بدمه ! حقاً لقد كانت أمنا كما زعمت ، رحمها الله وغفر لها ، ولكنى تعلمت العفاف من مأساتها يا أخى فاطمئن !

— أمينة ! ماذا تقولين ! أية مأساة يا أختاه !

— أوه أيها الأبله ! إلى متى تتحامق على ! إذن فاعلم أننى اكتشفت السر الرهيب بعد إذ اكتشفته أنت مباشرة ، وفى الليلة نفسها التى كدت تنقض على الكأس الهائلة لتشرب الثمالة القتالة التى تركها أبوك المسكين ، لولا أن سمعت وقع قدمى !

— أمينة !

— محمود ! لا فائدة فى الانكار يا أخى ! يجب أن نتعاون على هذا الشقاء الذي أوقعنا فيه سوء طالعنا . نحن أبرياء ، ولكن البرىء فقط هو الذى يتعذب أكثر من غيره

— ولكن مالنا نحن إذا كان أبوانا قد شربا السم ... ؟

— مالنا نحن ؟ إننا الثمرة المرة يا أخى ؟ لقد اتفقا على أن يتخلصا من الحياة بالسم حتى لا نعرف

تحس سرها الرهيب ، ولكنك كنت مختبئاً فى الليلة الحالكة تحت النافذة تسمع حوارهما الخافت ، وتسترق حديثهما الفزع ... وكنت تحسب أنك وحدك تفعل هذا ، فى حين كنت أنا الأخرى أسترق السمع كما تسترق ، ولكن من ناحية أخرى ... أليس كذلك يا نعيم ؟

— .... ؟ ...

— يا للحياة من مأساة هى أشبه شىء بالهزلة ! ومع ذاك كنت تريد أن تحتملها وحدك يا نعيم ، وكنت تتباله على لترى هل تعرف أختك البائسة سر أمها !

— الآن أعترف لك يا أختاه ... لكنى أقاسمك أننى ماعرفت كل شىء ، فهل عرفت أنت كل شىء ؟!

— عرفت كل شىء ياأخى ، بيد أننى أسألك أولاً ماذا تعرف وماذا لا تعرف من فصول هذه المأساة ؟

— الذى عرفته أننا لم نكن أبناء هذا الرجل الذى كان يحسبنا أبناءه .. واستنتجت بعد إذ رأيته يقنع أمنا باحتساء السم أنه فضّل أن يموتا فيذهبا بالعار كله قبل أن تأكلنا ناره ، وهذه تضحية عظيمة من الرجل الذى أحبنا ، والذى كنا نتمنى أن يكون أبانا الرحيم كما كنا نحسب

— والذى لا تعرفه يا نعيم ؟

— والذى لا أعرفه هو من عسى أن يكون أبانا يا ترى ؟ إنه يكون ألأم من خرج من صلب آدم ! ثم لماذا سلكت أمنا هذا السلوك الآثم ؟ إنها لا بد قد فعلته مضطرة بدافع غريب لم أستطع أن أحدسه !

— لقد كان زوج أمنا رجلاً عاقراً يئس الأطباء من إصلاحه ، وكان غنياً جم الغنى ، مثرياً واسع الثراء ، وكانت أمنا تحبه ، لكنها كانت تخشى أن يتزوج عليها أو أن يهجرها إلى حليلة أو خليلة ، فكانت لا تنى تبحث عن الطبيب المؤاسى ، فلما عز عليها زين لها الشيطان أن تحمل باسمه لتربطه بأسبابها برباط لا ينفصم .. وكانت تحتال لذلك بحِيَل جمة ، وذلك أهون الأشياء على المرأة متى أرادت ...

— أنت تستنتجين أم عندك علم بشىء يا أختاه !

— من ذاك ومن ذاك ...

— يجب ألا يقفو الانسان ما ليس له به علم يا أمينة فاحذرى !

— يا أخى لقد سمعت أكثر هذا الحديث من شفتيها وهى تعترف به للرجل المسكين الصالح . . . وسمعته من شفتيها وهى تهذى به فى حلم جميل إذ أنا بين ذراعيها ليلةً ، إذْ هى تقبلنى ، وتنثر دموعها على وجنتىّ ، وتستغفر لربها استغفاراً !

— أوه ! أذكر أنها صنعت مثل هذا معى ... اللهم يا من وسعت رحمته كل شىء إلا أن يُشرك به إغفر لها وارحمها

— وصنعت مثل هذا مع على ... ولقد رأيتها بعينى تنضح وجهه البرئ بدموعها !

— ياألله ! أو كلنا أبناء زنى ؟ اللهم لا رحمتها ! اللهم لا رحمتها !

— نعيم ! بل يرحمها الله أرحم الراحمين ! لا تبك يا أخى فان دموعك تنصب على وجهها كالمهل وهى الآن بين يدى ربها

— وهل كان استغفار إبراهيم ربه لأبيه إلا عن عدة !

— ذلك أن أباه كان مشركا يا نعيم

— وهل يزنى الزانى إلا وهو مشرك ..

— يرحمها الله يانعيم .. ورحمنى الله وإياك ياأخى !

— أتمنى حديثك يا أختاه ! من أبونا إذن ؟ !

— أبونا ! لعنه الله ! لقد قتله زوج أمنا !

— قتله الشيخ عبد الموجود !

— أجل ! وهل كان يلق ربه إلا بهذا الدم !

— رحمك الله يا شيخ عبد الموجود ! رحمك الله فلقد كنت لنا خيراً من ألف أب !

— أي والله ! لقد كان لنا خيراً من ألف أب!

— ومن أبونا يا أمينة إذن ؟ !

— أبونا ! !

— أجل ! من هوه ؟

— وهل حتم أن تعرفه يا نعيم ؟

— حتم وأي حتم ... وهل أصبح بعد ذاك السر سر ؟

— إذن ... هو ... والد محمود ! !

— والد محمود ؟ ! يا للهول !

— هو بعينه !

— ومحمود !! ألا يعرف أن الشيخ عبدالموجود قتل أباه !

— أكبر الظن أن لا ! إن التحقيق لم يتناول شيئاً من ذلك ، بل لم تحم شبهة حول الرجل ، ولم يذكر اسمه قط

— يا للهول ! ومحمود مع ذاك يبحث عن قاتل أبيه !

— لا أحسبه يفعل يانعيم ؟

— لا تحسبينه يفعل ؟ وكيف ؟ ألا يفكر في الثأر له ؟

— في الثأر له ؟ ! إن الزناة لا يلدون ذوى حمية يا نعيم ؟

— أوه ! لقد ولدونا يا أمينة ! !

— ولكنا أبرياء يا أخي ، وما ذنبنا نحن ؟

— ودماؤنا يا أختاه ؟ أليست أنجس دماء في هذه الدنيا ؟

— بل هي أطهر دماء وأزكاها ! إنني ما رفعت وجهي في السماء يا نعيم إلا رأيت الله جهرة ! لقد كنت أبكي أكثر منك ، وكنت أشعر بنار العار تدب في عروقي كالحميم ، حتى رأيت ربي يمسح بيده المباركة على قلبي ، فشعرت بمن أنقذني من جحيم أحزاني ...

— إيه ! يبارك الله إيمانك يا أختاه ! أما محمود!

— ماله ؟

— ماذا بينكما إذن ؟

— بيني وبينه مثل الذي بيني وبينك ، فهو أخي لظهر ، وأنت أخي لبطن ...

— لكنه لا يعرف هذا ، وأري أنه يحبك !

— يحبني ؟ إنه يكون غبياً !

— ولم يكون غبياً يا أختاه ؟

— لأنني لست جميلة ، وليس فيَّ ما يجذب قلوب الشباب ، وهذا ماأحمد ربي عليه حتى لاتكون المأساة هائلة !

— أو ليست مأساتنا هائلة مع ذاك ؟

— كلا ... إذ أنها لاتزيد على زلة أم تكررت ثلاث مرات ، وهي إن تكن مأساة ، فهي مأساة أوديب ، أو هي تشبهها ، وإن لم يشبه الرجل الصالح الشيخ عبد الموجود البطل أوديب !

— أي أنه يقل عنه تعاسة !

— الشيخ عبد الموجود بريء يا أخي ، ولقد فقد أخطأ في شرب السم ، وقد قتل بانتحاره نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق ...

— إنه لم يطق الحياة بعد إذ عرف أننا لسنا أبناءه ، وأن زوجته التي هي أمنا كانت تخدعه في شرفه ومعاشرته، وفي أيام السعادة الطويلة التي كان يظنها سعادة حقيقية ، فاذا هي نفاق في نفاق !

— لو تاب إلى ربه وسكن إلى رشده ، ما تناول الكأس أبداً !

وما ذا كان يصنع غير ذاك ؟ !

— كان ينبغي أن يكون شجاعا فيواجه المأساة مادام لم يرتكب جرماً

— وكيف كنت تحسبينه يواجهها ؟

— كما يواجه الناس أي مشكلة من مشكلات الحياة يلعب فيها القضاء ألاعيبه ! إنه قد قتل نفسه لأنه لم يُطق الفضيحة ، أليس كذلك ؟

— بلى ، هو ذاك ، ولأنه قد عز عليه أن يفقدنا ويفقد زوجته مرة واحدة ؟

— لا أحسبه حين أقدم على الانتحار قد فكر فيما تقول ، بل كان كل الذي رَوّعه هو شبح الفضيحة فلو أنه سكن إلى الله قليلا لما غلبه شيطانه لأن الذين صنعوا الفضيحة أشخاص آخرون

— بل هما شخصان أشدهما إثما زوجته

— والآخر أبونا الزاني يا نعيم ، وهنا لا تجد كيلا لعبد الموجود ، فعلام ضحى المسكين بنفسه إذن ؟

— من أجلنا !

— وهذا لا يصح إلا أن يكون خطأ مضافاً إلى خطأ ، فانه قد أذن لزوجته أن تحتسي السم ، وهي شخص الجريمة الأول ... ثم هو قد ثأر لشرفه من الرجل الذي أغراها فأزاله من الوجود وربّل بينه وبيننا ، فلم لم يعش هو ، ولو من أجلنا نحن ؟

— يعيش من أجلنا؟ وماذا يهمه من شأننا بعد ؟

يهمه هذا الخيال البديع ... خيال البنوة الذي كان يستغني به عن حقيقة البنوة ؟

— هذا شعر يا أختاه ، وما أبعد الشعر من الحقيقة

— ولولا الشعر لأظلمت أفق الحياة ، وضاعت بهجتها

— كثيراً يا أمينة ما تكون الحياة غير المنطق ، وفي أغلب الأحيان يسلك الانسان سبيله في الحياة خاضعا لعواطفه وغرائزه دون أن يكون لعقله سلطان عليه ، والناس في هذا سواء ، حتى الفلاسفة الذين لا يكونون فلاسفة إلا حينما يناقشون معضلة منطقية أقام أحدهم قضيتها وأراد الآخر نقض أقوال صاحبه فيها ... أما هم في حياتهم الخاصة ، بل العامة أيضاً ، فمسوقون مثلنا ، لا يستخدمون عقلهم أو منطقهم أو فلسفاتهم ... وهكذا كان الشيخ عبد الموجود... ومن يدري ! فقد أنتهي أنا ، وأنت أيضاً ، وقد ينتهي أخونا الصغير علي ، إلى مثل ما انتهى إليه هذا الرجل البائس

— ماذا تقول يا نعيم ؟

— أقول إن آخرتنا قد تشبه آخرة الشيخ ، ولو لم نقصد نحن إلى ذلك ... فلا تنزعجي !

— لا أنزعج !

— بلى ، لا تنزعجي يا أختاه ، فوالله لقد أنرت لي سبيلي إلى الله ، وإني أقاسمك أني لن أقدم على ما أقدم الشيخ عليه ...

— وما دمت قد أعطيتني موثقك على ذلك فكيف تنتهي أنت أو أنا أو أخونا علي إلى ما انتهى الشيخ إليه ؟

— أما أنا فسيقتلني الحزن

— وأي حزن يا أخي ؟

— أنت تتكلمين يا أمينة وكأنما قدت أعصابك من حديد ! أتسألينني أي حزن ؟ الحزن الذي ليس كمثله حزن ... إننا شُذاذ يا أمينة ! من أبونا ؟ من أمنا ؟ بيت من هذا الذي نأوي إليه بغير حق ؟ لمن هذه الضياع الشاسعة الواسعة ؟ بأي حق نتصرف في ريعها ونحن نعلم أنها ليست لنا بحق ؟ كيف ندعي ملكيتها وغيرنا بها أولى ؟ أخوات عبد الموجود

وإخوته ؟ أليس أولئك ورثته الحقيقيين ؟ أين منطقك ؟ تكلمي ؟

— نعيم !

— أمينه ؟ ماأحسبك تزعمين أننا بعبدالموجود أولى ! أنا ذاهب يا أمينه !

— نعيم ! إلى أين يا أخي ؟

— سأهاجر إلى . . . إلى . . . إلى الله ! إنه حسبي وهو ولي ...

— وأنا يا نعيم !

— إن شئت هاجرت معي ! ولي مع ذاك شرط !

— وما ذاك جعلت فداك !

— أن تكوني مؤمنة فأنت التي أنرت لي طريق الايمان !

— سألبي يا أخي ! ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أخونا علي ؟

— سيأتي معنا ، وسيفتح الله به علينا !

— إذن ... هلم !

* * *

وذهب إخوة عبدالموجود إلى الأقطار الحجازية ليؤدوا فريضة الحج ، فلقوا نعيما وعليا وأمينة يهرولون بين الصفا والمروة ، ولما أفاضوا من عرفات دعاهم نعيم إلى منزله الهادىء الساكن السعيد القريب من المسجد الحرام فقضوا هنالك عيدهم ، ثم ذهبوا إلى دكانه الجميل فاشتروا العقود والخواتم والسبح والكوفيات والعقالات وتمر الحلية

وحاولوا أن يكلموا نعيما في الماضي فاعتذر لهم ، وكان الدمع قد أوشك يترقرق فتفيض به عيناه

— لكنك نزلت لنا عن كل ميراثك من أبيك ،

وكذلك فعل أخواك ، وما كان لك سلطان على الصغير علي .. ولقد بحثنا عنك في أقطار الأرض لنرد على أخيك ما لا يقدر أحد على استلابه منه ، وها قد عثرنا بكم جميعاً ، فتقبل يابني أن نكون أوصياء على أخيك لنرسل إليه من مصر ما هو حقه

— بعد عام واحد يبلغ أخي رشده ويتولى هو هذا الحساب

— إذن فلنا مآرب آخر

— مآرب خير إن شاء الله

— تزوج ابن عمك محمدا من أمينة !

— بارككم الله ... لقد تزوجت أمينة !

— وممن ؟

— من الفتى المكي الحجازي الصالح ابراهيم ابن محجوب ، وهو يعيش وإياها في سعة والحمد لله وإن لي أنا الآخر لمأربا ...

— وماذا أصلحك الله وأثابك !

— ذاك أني كنت استعنت ببعض أموالكم على سفري ، وقد بارك الله لي ، وإن لكم في عنقي مائتي جنيه ، فها كموها !

— والله لا يكون هذا أبداً ...

— بل الحق أحق يتبع ... فخذوها أثابكم الله .

— والله لا تصل أيدينا إليها قط ... إنك تحيرنا يا نعيم ، وتذهب ألبابنا كل مذهب ... تالله إنه لسر ، ولا ندري لم تخفينه عنا ونحن أعمامك !

وذهب نعيم إلى جدة ليودع القوم ، ولما همت الفلك واحتواها الماء ، زفر نعيم زفرة صدعت فؤاده ، وعاد إلى مكة أدراجه والدمع يترقرق من مقلتيه ، فقصد إلى مقام إبراهيم فصلى لربه ، واستغفر لذنبه ، واستعان بالصبر والصلاة على بلواه